

من الفعل الكلامي إلى الفعل الحجاجي

زيار فوزية، جامعة وهران، الجزائر.

ملخص

إن نظرية الفعل الكلامي من أهم الأبحاث ، بل من أهم محاور التداولية ، باعتبارها أعطت دورا ومكانة للغة وأفعالها الكلامية في صنع ونقل المعاني من مستوى التلقي إلى مستويات الفعل والتجسيد ، واكتست طابعا خاصا حينما سعت إلى تحقيق أبعاد حجاجية ، بناء على كفاءة المتخاطبتين طالما أن كل المخاطب يصبو إلى إحداث التأثير تأسيسا لبناء حجاجي في كلامه .

ذلك أن الحجاج ليس سوى عمليات ترمي إلى تحقيق الاستمالة Adherence ، لما يعرض على المتلقي من دعوى ، والتأثير العملي في سلوكه ، وبالجملته إقناعه .

ومن هذا المنطلق كان من اللازم إبراز الجهود التي تناولت الفعل الكلامي (أوستن Austin ، سورل Searle ، وغرايس Grice) باعتبارها شكلت اللبنة الأساس لبروز الحجاج التداولي عند كل من ديكرو وانسكومبر .

Résumé

La théorie des actes de parole représente un axe de recherches très important s'articulant autour de la notion pragmatique. Cette importance réside dans le fait qu'elle reflète un outil linguistique dans la construction des actes de paroles et leur passage depuis la perception des sens vers l'action concrétisée .

La spécificité de cette théorie a été illustrée quand elle s'est penchée à réaliser des raisons argumentaires selon le niveau des interlocuteurs, sachant que chaque interlocuteur avait comme but influencer autrui en se basant sur une construction argumentaire solide dans ses paroles.

Il est admis que l'argumentation n'est que l'ensemble des opérations visant à réaliser l'adhérence de l'interlocuteur, et ceci pendant une conversation en agissant d'une manière pratique sur son comportement en vue de le convaincre.

Suivant cette analyse, la mise en évidence des efforts fournis par Austin, Searle et Grice dans la théorie des actes de parole semblerait utile, car leurs travaux ont été considérés comme le pivot qui a contribué dans la naissance de l'argumentation pragmatique chez Ducrot et Anscombe.

تقديم :

اعتبرت الاتجاهات اللسانية منذ دي سوسير De Saussure ، أن الوظيفة الأساسية للغة هي الإخبار وأن مفهوم التواصل la communication يعني هو الآخر نقل المعلومات إلى المتلقي، وبذلك يكون فعل الإخبار الفعل اللغوي الرئيسي.

وكل قول إخباري أو إثباتي هو تمثيل للواقع، ومن ثم فهو يخضع لمعيار الصدق أو الكذب هذه النظرة تعرضت لانتقادات كثيرة من قبل عد كبير من اللغويين والفلاسفة، خصوصا فلاسفة اللغة العادية، المنتمين إلى المدرسة أكسفورد من أمثال ستراوسن، أوستين، سورل.

لاحظ هؤلاء أن ثمة طائفة كبيرة من الأقوال لا تتمثل وظيفتها في الإخبار، ولا تصف أي واقع، ولا تخضع لمعيار الصدق أو الكذب، منها الأقوال الإنجازية performatif التي تبدو بعضها في ظاهرها وصفية descriptive، مما حدا بأوستين إلى أن يطلق عليها مصطلح الخداع أو الوهم الوصفي (1) l'illusion descriptive ، فبمجرد النطق بها ننجز أفعالا، لا نصف بها واقعا معيننا، ولا يمكن أن نقول عنها إنها صادقة (مطابقة للواقع) أو كاذبة (غير مطابقة للواقع) وهذا النوع من الأقوال شكل نقطة انطلاق لظهور اتجاه لساني آخر مناقض للاتجاه الأول، يعرف بالاتجاه التداولي (البراغماتي).

وعليه لا يمكن اعتبار الإخبار الوظيفة الأساسية والوحيدة للغة، إذا إننا نستعملها لإنجاز أفعال عديدة، ولتغيير الواقع أو لتغيير علاقاتنا وللتأثير في الغير وفي الأشياء.

ويذهب ديكرود Ducrot إلى أن كل نشاط يقوم به شخص معين يمكن اعتباره فعلا Acte أو عملا يهدف إلى إحداث " تغييرات متعلقة بالوضع الفيزيائي أو الاجتماعي للمتكلم، فنفس العمليات يمكن وصفها بأنها نشاط أو فعل وعمل، بحسب ما إذا كنا نراها في ذاتها أو باعتبارها تغييرا لعلاقة من يؤدها مع العالم. " (2)

ما يعني أن الفعل اللغوي، يتسم بخاصيتين هما:

كونه نشاطا يرمي إلى تحويل الواقع، وفعلا قانونيا يقوم بتحويل العلاقات بين الأشخاص المعنيين.

انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من صلب نظرية الأفعال الكلامية التي أرسى دعائمها كل من أوستين، وسورل، ثم قام ديكرود بتطويرها فأضاف فعليين هما فعل الحجاج Acte de l'argumentation وفعل الاقتضاء L'acte de présupposer ما يشير إلى أن الحجاج ذو طبيعة لغوية لسانية.

ويرى العزاوي أن نظرية الحجاج في اللغة تتعارض مع كثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعد الحجاج منتسبا إلى البلاغة الكلاسيكية (أرسطو)، أو البلاغة الحديثة برلمان، أولبراخت تيتيكاه، ميشال مايير أو منتسبا إلى المنطق الطبيعي جان بليز غريز، ثم يختم كلامه قائلا إن هذه النظرية وضع أسسها اللغوي الفرنسي أزوالد ديكرود منذ 1973 م. (3)

نضم من ذلك أن الحجاج اللغوي ذو طبيعة تداولية يختلف عن المنطق والجدل ميدانه اللغة بوصفها خطاها يستهدف التأثير.

أولاً – الأفعال الكلامية والحجاج :

1. جهود أوستين J.L. Austin :

ظهرت فكرة الحجاج من داخل حقل الأفعال الكلامية، حين قدم أوستين كتابا حول نظرية الأفعال الكلامية*، حاول فيه ربط اللغة بالاستعمال أو الإنجاز، مهتما بالكلام الذي أهمله سوسير. أدى هذا الأمر إلى وضع

تصور جديد للغة من خلال تقسيمه الجمل إلى وصفية وإنشائية (إنجازية) مميّزا بينهما. فالجمل الوصفية أو التقريرية: constative لا تميل إلا إلى وصف الحدث من غير ادعاء بتغيير الأشياء، في حين تكون أدائية أو إنجازية performative حين تقوم بتحويل الواقع.⁽⁴⁾ فالعبارات الوصفية constative هي جمل خبرية تصف شيئا ما ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وأما الجمل الإنشائية performative فهي التي لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب.

وقد ارتضى أوستين مصطلح الإنشاء لأنه يدل على الإنجاز يقول في ذلك: "ولقد اشتق لفظ الإنشاء من الفعل أنشأ perform وهو فعل يستخدم في اللغة الإنجليزية عادة مع اسم الحدث action ويدل على أن إحداث التلطف هو إنجاز لفعل، وإنشاء لحدث"⁽⁵⁾. أي التلطف بجملته ما في ظروف مناسبة ليس وصفا للقيام بالفعل، ولا هو إخبار بأننا نقوم به، إنه عين القيام بالفعل.

ثم ميز في ضوء نظرية الأفعال الكلامية بين ثلاثة أنواع من الأفعال تقابل الأولى منها أفعال التلطف المرتبطة بمخارج الحروف الفيزيائية، والثانية أفعال متعلقة بمقاصد العبارة أو إنجازها، وتعلق الثالثة منها بالموقف الخطابي أو السياق وتؤدي دورا تأثيريا من خلال اقترانها بالإثبات والإنجاز.

تقول آن ريبول A. Reboul "يميز أوستين بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية"*، العمل الأول هو العمل القولي، ويتحقق ما إن تلتفظ بشيء ما، أما الثاني فهو العمل المتضمن في القول، وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئا ما، وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئا ما"⁽⁶⁾. ما يدل على أن الكلام يتضمن فعلا حجاجيا، يجسده التلازم والاقتضاء بين أفعال الكلام.

مستويات الفعل اللغوي أو الكلامي :⁽⁷⁾

- فالفعل الأول هو الفعل الكلام (الفعل اللغوي) Acte locutoire . أي إطلاق ألفاظ تقع كأفعال بمجرد القول وينسحب على تركيبية ثلاثية العناصر هي :⁽⁸⁾

- الفعل التصويطي l'acte phonétique
- الفعل التأليفي l'acte phatique
- الفعل الإجمالي l'acte Rhétique

- أما الفعل الثاني فهو قوة الكلام أو الفعل المتضمن في القول (الفعل الإنجازي) Acte illocutoire .

ويكتسب قوته من الإثبات التي يحتويها والتي تعتبر حجة، ويعني إنجاز فعل ما، تؤديه الصيغة التعبيرية الناتجة عن تحقيق الفعل الكلامي، أي الفعل التواصل الذي تؤديه هذه الصيغة في سياق معين، وتكون وظيفته الأولى والمباشرة، تغيير مقام المتكلمين، قد يكون استفهاما أو إخبارا أو وعدا.

يسمها أوستين القوى الإنجازية أو الأفعال المتضمنة في القول أو الإنجازات ويسوق ديكر و مثالا توضيحيا في المقدمة التي وضعها لكتاب سورل الأفعال الكلامية كالآتي:
هل سيكون الجو جميلا غدا؟

يقول إذا ما اعتبرناه جزءا من مقال أو خطبة فليس له من دور سوى التعبير عن شك أو قلق أما إذا تم تموضعه داخل علاقات الخطاب التي يسمها أوستين أفعالا خطابية سيجعل منه سؤالا يفترض على مستمعيه الإحالة عليه.

ويرى ديكر و أن تحديد أوستين للفعل الخطابي (الإنجازي) على أنه مبني على العلاقات التي تتأسس بين المتحاورين في خطاب ما، تعريف عام غير محدد.

ويذهب إلى أن "إنجاز متكلم لفاعل كلامي (خطابي) كالأستفهام مثلا يجعله يسند إلى نفسه دورا وفي نفس الآن يسند إلى المستمع دورا آخر، إذ بوضع الأول للسؤال يعبر عن رغبته في جواب الثاني، فالمستمع هو المخصوص بفاعل الخطاب لأنه يدخل في علاقة تضطره للجواب".⁽⁹⁾

ولكل فعل كلامي إنجازي قوة Force ومحتوى قضوي Contenu – Propositionnel ويقدم أوستين ثلاثة معايير لتحديده:

1. إنه فعل ينجز في الكلام ذاته وليس نتيجة تنتظر منه.
2. يفسر بصيغة إنشائية تفصح عنه، مثل: أعد، أطلب، أمر.
3. ذو طبيعة تواضعية اصطلاحية.

- وأما الفعل الثالث فهو لازم فعل الكلام أو الفعل التأثري Acte perlocutoire فيعرف من خلال مفهوم الأثر، أو التأثير، لأن قول شيء ما غالبا، يسبب بعض التأثير على المشاعر والأفكار وتصرفات المستمعين، أو على تصرف المتكلم نفسه، أو على شخص آخر أيضا، وكأمثلة عن ذلك هناك: أقنع، باغت، أغضب، أقلق، أراح، عزى، أغوى أو خدع.⁽¹⁰⁾

وبذلك يعد ثمرة أو نتيجة منطقية مترتبة عن الفعلين السابقين، بل يجسد الغرض التداولي من الكلام المتمثل في التأثير، ما يجعلنا نستنتج أن الكلام مبني على الحجاج ويتجسد ذلك في الآثار المترتبة عن الفعل، كتعديل أفكار المخاطب أو عاداته أو سلوكه.

وما دامت كل رسالة موجهة إلى مخاطب معين، فإنها تسعى إلى إقناعه بفعل ما Convaincre، وكنتيجة لذلك استجابته لهذا الفعل، وتنعت هذه الاستجابة فعل التأثير في الخطاب Acte perlocutoire، إلا أن هذا الخطاب لن يستجيب إلا إذا تمركز في ذهنه فعل الاقتناع Persuader، والفرق بين أقنع Convaincre، واقتنع Persuader، يكمن في أن:

الفعل أقنع يشترك فيه المخاطب والمتلقي، بينما الفعل اقتنع يتعلق بالمتلقي فحسب*.

يقودنا هذا إلى أن الكلام مبني على خاصية حجاجية بناء على تسلسل الأفعال الكلامية ما يعكس رؤية حجاجية تداولية تتماهى في بنية الفعل.

وتتضح هذه الفكرة أكثر بالمثال الآتي:

- يقول الأَب "نظّف أسنانك".

- فيرد الابن قائلا "لا أشعر بالنعاس".

فالأب في قوله ينجز عملا قوليا وعملا متضمنا في الوقت ذاته ويتمثل في أمر ابنه بتنظيف أسنانه.

وبالمقابل ينجز الابن ثلاثة أفعال كلامية في جوابه (لا أشعر بالنعاس)، فالعمل الأول نطقه بالجملة، والعمل المتضمن في القول إخباره وإثباته عدم الرغبة في النوم، وفي العمل الثالث ينجز عملا تأثيريا حجاجيا يتجلى في إقناعه لأبيه بعله إهماله لتنظيف أسنانه من خلال قوله أن النعاس لا يداعب عينيه.⁽¹¹⁾

أقر أوستين بأن كل جملة بمجرد التلفظ بها توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعملا متضمنا في القول، وتوافق كذلك القيام بعمل تأثير بالقول (حجاج)، وأفرد محاضراته الأخيرة لتصنيف مختلف أنواع الأعمال الإنجازية بناء على قوتها الإنجازية.⁽¹²⁾

نستنتج مما سبق أن الحجاج يستند إلى الأفعال الكلامية لتحقيق التأثير على المتلقي، بحسب الموقف الكلامي، ما يكسب هذه الأفعال إضافات اجتماعية لها حضورها في إطار العلاقات بين الفاعلين في الخطاب،

وبالتالي تتجاوز اللغة وظيفة الإخبار لتصبح نشاطا اجتماعيا على حسب رأي ديكر.

تندرج الخطابات الحجاجية المختلفة في صميم نظرية الأفعال الكلامية وأغراضها السياقية وأبنية أقوالها، وتهدف بذلك إلى إحداث تغيير في سلوك المتلقي، مادام أننا نتكلم بهدف التأثير، وأن بنية اللغة وبنية الفكر واحدة، ومن ثم تصبح اللغة أداة تواصل وتخاطب ووسيلة للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية⁽¹³⁾. وبالتالي يكون الحجاج مرادفا للفعل.

2. جهود سورل J. R. searle :

برز اهتمام سورل بالحجاج من خلال حديثه عن القصد Intention والمواضعة⁽¹⁴⁾ convention التي تعتبر شرطا أساسيا في كل عملية كلامية ذلك أن الأفعال الأدائية تحمل جوهرها إثباتا أو حجة تدل على قصد المتكلم مما يجعل الحجاج مرهونا بالقصدية.

ثم صنف الأفعال الكلامية بحسب وظائفها إلى أفعال إنجازية مميّزا بينها وبين ما يترتب عنها والتي أطلق عليها الأفعال التأثيرية perlocutoire Acte كالحث والإقناع والتوقع وما يميز بينها هو القصد، ذلك أنه لتحقيق فعل الوعد مثلا لا بد للقائل أن ينوي تبليغ مخاطبه بقصده، في حين لا يشترط ذلك في الأفعال التأثيرية لأنها نتيجة مترتبة عن الفعل اللغوي.

وبناء على ذلك يرتبط الفعل الكلامي (الأدائي) بالحجاج من خلال الإنجاز.

ثم ميز بين المحتوى القضوي (الفعل القضوي acte propositional) * أي ما يتصل بمضمون الفعل، والقوة المتضمنة في القول أو ما يسميه العمل المتضمن في القول في حد ذاته، وما ينتج عنه من تأثير وأعاد صياغة الفعل الكلامي كالآتي:⁽¹⁵⁾

أ- أن تتكلم، يعني أنك تحقق الفعل التلظي acte d'énonciation .

ب- أن تسند الكلمات إلى بعضها وتحيل بها على مراجعها، يعني أنك تحقق الفعل القضوي acte propositionnel .

ج- أن تخبر أو تعد أو تستفهم، معناه أنك تحقق الفعل الإنجازي acte illocutoire .

د- أن تحدث التأثير بالقول على الآخرين فتدفعهم إلى تعديل مواقفهم وعاداتهم، معناه أن تنجز الفعل التأثري acte perlocutoire .

فضلا عن استفادته من قواعد غرايس Grice المحادثائية خصوصا ما تعلق بالعملية التخاطبية، لما يحاول أحد الطرفين التأثير في الآخر بالمحاجة فيقنعه ليتواصل معه، ما مكنه من وضع شروط تضمن نجاح العمل المتضمن في القول.

ويشير جاك موشلار، وأن روبرول في كتابهما إلى تمييز سورل لمجموعة من القواعد التحضيرية المتصلة بالسياق وهي:⁽¹⁶⁾

1. قاعدة المحتوى القضوي:

يقضي إنجاز فعل القول، إنجاز فعل ما في المستقبل كالوعد مثلا.

2. القواعد الأولية:

تتعلق بالاعتقادات، إذ يسعى المتكلم لأن ينجز المخاطب ما أمر به.

3. قاعدة النزاهة:

ترتبط بالحالة الذهنية للقائل، لذا تعد قاعدة أساسية في كل حوار يهدف فيه المرسل إلى التأثير على المتلقي، لذا يفترض أن يكون نزيها.

4. القاعدة الجوهرية:
وتحدد نوع الفعل الذي يقدمه أحد المتحاورين.
5. قواعد المقصد والمواضعة:
تحدد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينجز بها هذه المقاصد بواسطة المواضعات اللغوية ما مكنه من إعادة تصنيف الأفعال الكلامية وفق الأفعال المتضمنة، والتي أوردتها كآتي: ⁽¹⁷⁾
- أ- الإخباريات (الإثباتات) Assertifs ؛
حين تبليغ خبر ما، أو واقعة. وتقبل الصدق أو الكذب .
- ب- التوجيهيات (الأدائية) Directives ؛
يحاول فيها المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما، ولا تقبل الصدق أو الكذب كالاستفهام، والأمر، والرجاء...
مثل الطلبيات .
- ج- الالتزاميات (أفعال التعهد) Promissifs ؛
التزام وتعهد المتكلم بفعل شيء في المستقبل مثل: النذور، العهود، المواعيد، الرهان ولا تقبل الصدق أو الكذب،
وشرط صدقها هو القصد.
- د- التعبيريات Expressifs ؛
التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الاخلاص، كالاعتذارات، التشكرات، التهاني...
- هـ- الإعلانيات Déclaratifs ؛
تكون بمجرد التلفظ بها، وتخضع للمقام ومقتضياته، وهي ذات صلة بالحجاج بالنظر إلى الأثر والتغيير الذي تحدثه .

نستنتج مما سبق أن سورل ربط الفعل الكلامي بمفهوم القصدية، لذا لقيت آراؤه رواجا وقبولاً لدى الكثير من الدارسين وفي مقدمتهم ديكرود Ducrot، الذي درس كتاب سورل واستلهم منه أهم مقومات الدرس الحجاجي اللغوي.

والتداولية لا تقتصر على دراسة الأفعال الكلامية فحسب، بل تمتد لتشمل مبادئ التخاطب والتحدث، تعرض فيها الحجج وفق منطق المحادثة ومبادئ التخاطب، التي أرساها غرايس Grice في دراسة للعملية التواصلية الحوارية، إذ يمثل أساس الحجج في التداولية لأنه يبرز ويظهر بشكل جلي في الخطاب. ⁽¹⁸⁾

3. قواعد المحادثة عند غرايس H.P Grice والحجاج :

من أهم الجهود التداولية التي اهتمت بالتحدث والتخاطب ما عرف بمنطق المحادثة لغرايس، وهو مقال نشر عام 1957، يمثل نقله نوعية في مجال التداولية، حيث استنتج جملة من القواعد والمبادئ المتعلقة بالعملية التواصلية، تقوم على قواعد يتم من خلالها تحديد نجاح أو فشل العملية الحوارية. ⁽¹⁹⁾

لقد أحدث غرايس مفهومين جديدين أثرى بهما الدرس التداولي هما مبدأ التعاون والاستلزام الخطابي وعدهما أساس كل عملية تخاطبية، ذلك أن القول عنده يعني حاصل التلفظ بجملة، وهو بتغير هذه الملابس والقائلين. وبذلك يعدان دعامة أساسية في إنتاج الأقوال أو تأويلها أثناء التخاطب أو الحجج. يفترض غرايس أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون، فالمشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية ومتعاونة لتسيير تأويل أقواله.

اقترح غرايس مجموعة من المسلمات (قواعد التخاطب) من شأنها أن تضبط عملية التخاطب، تقوم على

مبدأ عام هو مبدأ التعاون Principe de coopération وتحدث ظاهرة الاستلزام الحواري Implicature conversational حينما يحصل تباين بين ما يقال وما يفهمه المتلقي. ويستند مبدأ التعاون إلى جملة من القواعد يجب على المتخاطبين مراعاتها واستغلالها، لنجاح العملية التواصلية وهي كالآتي: (20)

1. مبدأ الكم : Maxime de quantité :
- امتلاك المناقش لكمية من المعلومات المطلوبة لا زيادة فيها ولا نقصان، من أجل إنجاح المحادثة، إذ شعاره لتكن إفادتكم للمخاطب على قدر حاجته.
2. مبدأ الكيف Maxime de qualité :
- المساهمة في النقاش تكون حقيقة لا تؤكد ما يعتقد صاحبها أنه خطأ، أي لا تقل ما ليست لك حجة عليه.
3. مبدأ العلاقة [pertinence] [Maxime de relation] :
- يجب التحدث في صميم الموضوع، ويشمل ذلك علاقة أقوال القائل السابقة بأقوال الآخرين.
4. مبدأ النوع Maxime de manière :

التزام الوضوح في الكلام وتجنب الالتباس في الحديث مع مراعاة الاختصار والمنهجية، فنزاهة القائل مثلا تقتضي ألا يكذب في استعمال الحجج الكافية لإثبات ما يثبته. تمثل هذه القواعد قوانين التواصل والتحاور قصد تحقيق التفاهم، والحجاج باعتباره شكلا من أشكال الحوار والتواصل يرتبط بها أشد الارتباط.

يقول طه عبد الرحمن "هاته القواعد ضرورية من أجل تحقيق التفاهم والتواصل بين الطرفين وعليه فهي تمثل منطلقات لكل حديث يجري بين طرفي الخطاب" (21) ، أما الاستلزام الخطابي فيقابل ما تم تبليغه، ويختلف عما قيل، ويؤكد غرايس على وجود طريقتين للتبليغ هما: طريقة تواضعية تستدعي استلزاما تواضعية، وطريقة محادثائية تقتضي استلزاما محادثائيا ، ولتوضيح ذلك نورد المثال الآتي:

لنفترض أن شخصا ما يعتقد أن الجزائريين شجعان، ويريد تبليغ ذلك إلى غيره إذ يمكن أن يبلغه بثلاث طرق هي: "إن الجزائريين شجعان" أو "فلان جزائري، إذن هو شجاع" أو "فلان جزائري إنه شجاع".

ما يقصد تبليغه (أن الجزائريين شجعان) وبالتالي تستوفي هذه الجملة الدلالة التواضعية لها بتأويل القول، فلا يوجد استلزام خطابي. في حين يبلغ أكثر مما يقوله، حينما يقول فلان جزائري وأنه شجاع، يبلغ أنه شجاع من خلال جزائريته، فيستنتج أن الجزائريين إذن شجعان. ويصبح بذلك استلزاما خطابيا، ولكن هذا الاستلزام في الحالة الثانية تولد بكيفية تواضعية بواسطة (إذن) الرابط.

بناء على ما تقدم يتضح أن الاستلزام الخطابي يقوم على الاستدلال في مجال تأويل الأقوال، تحكمه قواعد لا تمثل مجرد قوانين يجب اتباعها، بل تمثل تصورا لما يتوقعه المخاطبون عنه، وبالتالي تعد في الأصل مبادئ تأويل أكثر من كونها قواعد سلوك، ولذا تدرج ضمن سياق التيار المعرفي. (22)

وفي مقابل ذلك يوجد استلزام حواري الناتج عن الاستلزامات الخطابية، فمثلا يقول الأب لابنه "نظف أسنانك" فيجيبه ابنه "لا أشعر بالنعاس" لتكون نتيجة حتمية لاستثماره قاعدة العلاقة ذلك أن رفض تنظيف الأسنان هو استلزام محادثائي، إذ لا توجد فيه مواضعة بين النوم ونظافة الأسنان، وهذا الاستدلال يمثل أيضا نمطا من الاستلزام الحواري، وعليه فإن الاستلزامات الخطابية وخاصة الحوارية تتولد عن طريق الاستدلال. (23)

ولذلك فهي مقيدة بقواعد المحادثة والاستدلال، ونمطها الشكلي ينطلق من مقدمات منطقية إلى نتيجة

ويتوقف فيها على صدق هاته المقدمات أو كذبها في حين أن الاستلزام الحواري لا يعتمد هذا النمط البرهاني بل هو عرضة للخطأ وسوء الفهم أو البطلان.

وقد استفاد دارسوا الحجج من آرائه باعتباره حوارا بين متكلم ومتلق تحكمه قواعد المحادثة، فنحن حين نتكلم نسعى من جهة إلى حمل المخاطب على أن يتقاسم آراءنا، ونسعى من جهة أخرى إلى حمل الآخرين على الاقتداء بأكبر قدر ممكن من آرائنا.

نستخلص من كل ما سبق أن الحجج انبثق من رحم الفعل الكلامي من خلال جهود أوستين، وسورل، هذا الأخير حاول ربط الفعل بالمواضعة والقصدية، بينما درسه غرايس من منطلق حوارى تواصلية ضمن شروط المحادثة، ما مكن ديكرو من إرساء معالم نظرية الحجج منطلقا من فكرة مفادها أن اللغة تؤدي دورا إقناعيا تأثيريا.

ثانياً- الحجج التداولي :

يعتبر ديكرو من مؤسسي نظرية الحجج، باعتبارها نظرية لسانية تهتم بدراسة الوسائل اللغوية والإمكانات التي تحويها اللغة الطبيعية التي تتيح للمتكلم توجيه خطابه وجهة ما تمكنه من تحقيق أهدافه الحججية، منطلقا من فكرة جوهرية هي أننا نمارس الكلام بقصد التأثير في غيرنا.

وبذلك تؤدي اللغة وظيفة حججية على غير وظيفتها الإخبارية التي تظل ثابتة ما يعني أن الحجج مسجل في بنية اللغة ذاتها وليس مرتبطا بالمحتوى الخبري للقول ولا بمعطيات مقامية بلاغية.

يقول ديكرو في هذا الإطار "ترتبط التسلسلات الحججية في الخطاب بالبنية اللغوية، لا بمحتواها الخبري".⁽²⁴⁾

انبثقت إذن نظرية الحجج من صلب نظرية الأفعال الكلامية التي أسسها أوستين، وسورل ثم طورها ديكرو وأضاف فعليين هما فعل الاقتضاء وفعل الحجج ثم أعطى تعريفا مغايرا للإنجاز واصفا إياه بأنه كل "فعل لغوي يهدف إلى إحداث تحويلات قانونية، ما يفرض على المتلقي نمطا معيناً من النتائج".⁽²⁵⁾

1. الحجج التداولي مفهومه ومبادئه :

يعني الحجج في هذا الإطار "تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة أو إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"⁽²⁶⁾، ويعرف أيضا بأنه "إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها"⁽²⁷⁾، وبناء على ذلك تحمل اللغة سمة حججية، لأن آلياتها الخطابية محددة بواسطة بنية الأقوال التي تعد أساس التراكيب اللغوية تؤدي دورا إقناعيا تأثيريا.

يتمثل الحجج عند كل من ديكرو Ducrot وآنسكومبر Ansbombe في "تحقيق فعليين هما فعل التصريح بالحجة من جهة وفعل النتيجة من جهة أخرى، سواء كانت النتيجة صريحة أو ضمنية".⁽²⁸⁾

وذهبوا إلى أن للأفعال الكلامية وظيفة حججية، بفعل مؤشرات تحملها البنية التركيبية، تحدد قيمتها بعيدا عن محتواها الخبري الذي يظل ثانويا، وبذلك يبني الخطاب الحجج على مجموعة من الحجج تؤدي إلى التسليم بالنتائج، ومن الأمثلة التي قدمها في كتابهما "الحجج في اللغة":

- الطقس جميل فلنخرج إلى الزهرة.

تكون الحجة الأولى ق1 هي: الطقس جميل، والحجة الثانية ق2 هي: فلنخرج إلى الزهرة.

والنتيجة الضمنية غير مصرح بها هي ق2 شريطة أن يكون التوصل إليها سهلا.

والحجج بما يتضمنه من قوة حججية، يجعل المتكلم يوجه قوله وجهة حججية ما، وفكرة التوجيه

L'orientation هذه تأخذ معناها من مقصدية المتكلم، وتظهر في أمرين:
 "عدم انفكاك القصدية عن اللغة وتراتب القصدية".⁽²⁹⁾

ويكون هذا التوجيه بإحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي لدى المتلقي، وفي تعلق وترابط الحجج ببعضها مجسدة بذلك سلطة وقوة الحجاج الهادف إلى التوجيه والإقناع.

والحجاج عموماً أن يقدم المتكلم قولاً ق1 (أو مجموعة من الأقوال) موجهة إلى جعل المخاطب يقبل قولاً آخر ق1 (أو مجموعة أقوال أخرى) سواء أكان ق2 صريحاً أو ضمناً وهذا الحمل على قبول ق2 على أنه نتيجة للحجة ق1 يسمى عمل محاجة.⁽³⁰⁾ وفرق ديكرو Ducrot بين معنيين للفظ حجاج Argumentation، المعنى العادي والمعنى الفني أو الاصطلاحي، والحجاج المقصود في التداولية المدمجة* هو بالمعنى الثاني.

أ- الحجاج بالمعنى العادي:

يعني في هذا الإطار "طريقة عرض الحجج وتقديمها ويستهدف التأثير في السامع فيكون بذلك الخطاب ناجحاً وفعالاً".

كما يجب عدم إهمال السامع أو المتقبل المستهدف، لأن نجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبة للسامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة على إقناعه زيادة على استثمار الجانب النفسي من أجل تحقيق التأثير المرغوب فيه.

ب- الحجاج بالمعنى الفني:

صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان، ضمن المحتويات الدلالية، والخاصية الأساسية العلاقة الحجاجية أن تكون درجية Scalaire أو قابلة للقياس بالدرجات.⁽³¹⁾ والحجة في معناها السائر هي "إما تمش ذهني يقصد إثبات قضية أو دحضها وإما دليل يقدم لصالح أطروحة ما أو ضدها"⁽³²⁾. وتختلف الحجة Argument عن البرهان Preuve، ولتقريب مفهوم الحجاج أكثر ينبغي مقارنة بمفهوم البرهنة Demonstration أو الاستدلال المنطقي (القياس)⁽³³⁾ Syllogisme. فالخطاب البرهاني يقدم براهين وأدلة منطقية، ويقوم على استنتاجات منطقية مثل:

- كل اللغويين علماء.

- زيد لغوي.

- إذن زيد عالم.

فاستنتاج أن زيدا عالم حتمي وضروري لأسباب منطقية، أما الحجاج فهو احتمالي من مثل:

- انخفض ميزان الحرارة.

- إذن سينزل المطر.

فاستنتاج احتمال نزول المطر يقوم على معرفة العالم، وعلى معنى الشطر الأول من الجملة، وهو احتمالي.

ومنه تسعى الدراسة الحجاجية إلى تحليل التقنيات التي تسمح بإحداث ميل السامع إلى الأطروحات التي تعرضها على مسامعه بالإثبات والإقناع.

تقوم الحجة فيه على كل ما يمكن أن يكون موضوع إبداء رأي أو إصدار حكم، لصالح أطروحة ما أو ضدها.

وأما عن الفرق بين الاستدلال Raisonement والحجاج، فإن هذا الأخير ينتهي إلى نظام الخطاب، مؤسس على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب، في حين ينتهي الاستدلال إلى المنطق

يقول ديكنز "إن البرهنة والحجاج بالنسبة إلي يتصلان بنظامين مختلفين تماما، نظام ما نسميه عادة المنطق ونظام ما نسميه الخطاب".⁽³⁴⁾

ومجال الحجاج هو المحتمل والنسبي ذلك أنه ليس سوى "إجراء يسلكه فرد أو مجموعة لدفع المستمع إلى تبني موقف اعتمادا على إثباتات أو حجج".⁽³⁵⁾

وقد تناول ديكنز مفاهيم الحجّة، التي تمثل بناء استدلاليا أو عنصرا دلاليا يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر قد يرد في شكل قول أو نص أو مشهد طبيعي أو سلوك غير لفظي كما تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق.

2. خصائص الحجاج التداولي:

تتميز الحجج اللغوية بعدة خصائص وسمات منها:⁽³⁶⁾

1- 2: إنها سياقية: باعتباره هو الذي يتدخل ويصير الدليل حجة، ويمنحه طبيعته الحجاجية، فالعبارة الواحدة قد تكون حجة أو نتيجة، أو قد تكون غير ذلك بحسب السياق.

2- 2: إنها نسبية: لكل حجة قوة حجاجية، بمعنى أن الحجج متفاوتة فهناك الحجج القوية والحجج الضعيفة والحجج الأوهن والأضعف.

2- 3: إنها قابلة للإبطال: الحجاج اللغوي نسي ومرن بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتى. وبهذا تقوم النظرية الحجاجية على حسن اختيار الحجج وتوظيفها تبعا لأهداف المتكلم، فيختار الحجج الفعالة والملائمة ليضمّن عملية التأثير في المتلقي، ذلك أن معيار نجاح هذه العملية هو إحداثها التأثير المنشود.

3. حجاجية الفعل الكلامي:

إن نظرية الأفعال الكلامية التي وضع أصولها أوستين Austin، وأقام بناءها سورل Searle، ووسع مجالها غرايس Grice، وفان إيملر Van Eemeren، وخروتندورست R. Grootendorst، عرفت تطورا، مكن من إدراج الحجاج في جملة الأفعال الكلامية.

فالحجاج عند فان إيملر وخروتندورست عبارة عن "فعل تكلمي (إنجازي) لغوي مركب"⁽³⁷⁾. أي أن الحجّة تمثل فعلا إنجازيا مركبا من أفعال فرعية وموجّهة، إما لإثبات أو إبطال دعوى معينة. وعملا بمبدأ سورل في تحديد شروط أداء الفعل الكلامي، استخلص هذان اللسانيان شروط أداء فعل الحجاج، وقسمها إلى شروط الحجّة المثبتة، وشروط الحجّة المبطلّة.

وتتلخص هذه الشروط في:⁽³⁸⁾

- شروط الحجّة المثبتة:

أ- شروط المحتوى القضوي:

على المتكلم أن يأتي بمجموعة أحكام جازمة تتضمن قضية مخصوصة.

ب- الشرط الجوهرية:

أن يقدم أحكاما وأدلة تثبت الدعوى قصد إقناع المستمع بها.

ج- شرط الصدق:

ينبغي للمتكلم اعتقاد صدق الدعوى التي جاء بها لإثباتها.

د- الشرط التمهيدي:

يجب أن يعتقد المتكلم أن المستمع لا يسلم بالدعوى ولكنه يسلم بالقضايا التي جاء بها لإثباتها.

- شروط الحجة المبطللة :

أ- شرط المحتوى القضوي:

على المتكلم أن يأتي بمجموعة أحكام قطعية تخص قضية معينة.

ب- الشرط الجوهري :

تقديم مجموعة أحكام وأدلة تبطل الدعوى، أي أنه يسعى إلى إقناع المخاطب ببطلان الدعوى.

ج- شرط الصدق:

أن يعتقد المتكلم كذب الدعوى، وصدق القضايا التي جاء بها لإبطالها.

د- الشرط التمهيدي:

أن يعتقد المتكلم أن المستمع يُسلم بالدعوى وبالقضايا التي جاء بها لإبطالها.

ثم تتبعاً دور كل صنف من الأفعال الكلامية، التي صنفها سورل ووجدنا أن بعضها ذو دور حجاجي، أما البعض الآخر فليس له ذلك الدور.

وبما أن الحجة فعل يتعلق بحقيقة خطابية، بخلاف الفعل الكلامي المختص بالجملة أو الملفوظ، فإن فان إيمرن وخروتندورست حاولا إجراء تعديلات على قواعد غرايس التخاطبية، فأبدلا، مكان مبدأ التعاون، مبدأ أطلقا عليه اسم "مبدأ التواصل" ومحتواه أن على المتكلم أن يكون واضحا وصادقا وناجحا ومراعيا المناسبة في فعله اللغوي.

ثم استنتجنا أن الأفعال الكلامية تسهم بأدوار مختلفة في الحجاج حسب الاستعمال، فيستعمل المرسل أغلب أصناف الفعل التقريرية، لتدعيم وتأكيد وجهة نظره، أو للتراجع عند اقتناعه بأنها لم تعد صالحة، أو للتنازل عن دعواه أو لتأسيس نتيجة.⁽³⁹⁾

في ضوء ما سبق، يتضح أن نظرية الفعل الكلامي من أهم الأبحاث، بل من أهم محاور التداولية، باعتبارها أعطت دورا ومكانة للغة وأفعالها الكلامية في صنع ونقل المعاني من مستوى التلقي إلى مستويات الفعل والتجسيد، وتكتسي طابعا خاصا حينما ترمي إلى تحقيق أبعاد حجاجية تهدف إلى الإبانة، بناء على كفاءة المتخاطبين طالما أن المخاطب يصبو إلى إحداث التأثير تأسيسا لبناء حجاجي في كلامه.

وبذلك ليس الحجاج سوى عمليات ترمي إلى تحقيق الاستمالة Adherence، لما يعرض على المتلقي من دعوى، والتأثير العملي في سلوكه، وبالجملة الإقناع.

ثم إن نجاعة هذا الفعل إنما تكمن في مدى قدرته على اقتحام عالم المتلقي وتغييره، أي كان نوع الخطاب.

العوامش :

(1) Voir, Quand dire c'est faire, Austin J.L, Traduction de Gilles Lane, éditions du seuil, paris, 1970, p15 .

(2) Voir, Dire et ne pas dire, Ducrot. O, Hermann éditeur, 3eme édition, paris, 2003.p77 .

(3) ينظر، اللغة والحجاج، العزاوي أبو بكر، دار العمدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1426هـ، 2006م، ص17.

* العنوان الأصلي هو How to do things with word وهو عبارة عن اثنتي عشرة محاضرة، نشرت عام 1960م، وترجم إلى الفرنسية تحت عنوان Quand dire c'est faire، عام 1970م. وترجم أيضا إلى العربية بالقول هو الفعل، ينظر، الملفوظة، سرفوني جان، تر قاسم المقداد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1998. ص: 64.

(4) ينظر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ديكرو أزوالد، سشايفر جون ماري، تر منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص: 692.

- (5) نظرية أفعال الكلام العامة، أوستين جون لانكشو، كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 1991م، ص: 17.
- * أثر الباحث طه عبد الرحمن استعمال مصطلحات مشتقة من نفس المادة (ك.ل.م) لتسمية مستويات الفعل اللغوي واقتراح: الفعل الكلامي أو فعل الكلام كمقابل لمصطلح l'acte locutoire، والفعل التكلي أو فعل التكلم كمقابل للمصطلح l'acte illocutoire والفعل التكليبي أو الفعل التكلیم كمقابل لمصطلح l'acte perlocutoire، مستثمرا الخاصية الاشتقاقية للغة العربية، ينظر، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، عبد الرحمن طه، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م، ص: 260.
- (6) ينظر، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، روبرول آن موشلار جاك، تر سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص: 31، 32.
- (7) ينظر، نظرية أفعال الكلام العامة، ص 121، 122، وينظر، اللسان والميزان، ص 260، وينظر، الملفوظية، سارفوني جان، ص: 67. وينظر أيضا: Dictionnaire encyclopédique de Pragmatique, Moeshler Jaques et Reboul Anne, Editions du seuil, Paris, 1994, p62 .
Quand dire c'est faire, Austin, Op. Cit, p114 .
Ibid. p. 61 .
- (8)
- (9) ينظر، السياق والنص الشعري، آيت أوشان علي، إفريقيا الشرق، دار الثقافة، ط1، 2000م، ص: 70.
- (10) ينظر، الملفوظية، سرفوني جان، المرجع السابق، ص: 67.
- * يرتبط الإقناع بالحجاج الخطابي الذي يهدف إلى التقريب بين المتحدث والمتلقي ذلك أنه مرتبط بالقول كسائر أعمال التأثير الأخرى، لا يكون فقط بالمواضيع اللغوية أو بالمتحدث، بل له علاقة بتهيؤ السامع، ولهذا فإمكان تحقيقه مرهون بذلك، ينظر، الحجاج عند أرسطو، الريفي هشام، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، كلية الآداب، منوبة، تونس، د.ت، ص: 143، 144.
- وأما عن الفرق بين الإقناع والاقتناع، فيرى طه عبد الرحمن أن الاقتناع يترتب وينتج عن الإقناع، ينظر، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م، ص: 38.
- أما عند برلمان وتيتيكاه فيرتبط بما هو عقلي أكثر من الإقناع الذي قد يرتبط بما هو ذاتي، وبناء على ذلك قسما الحجاج إلى: حجاج إقناعي يرمي إلى إقناع الجمهور الخاص، وحجاج اقتناعي غايته أن يسلم به كل ذي عقل، ينظر، الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، صولة عبد الله، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص: 300 - 306.
- (11) ينظر، التداولية اليوم، روبرول آن، موشلار جاك، المصدر السابق، ص: 32.
- (12) Voir, Quand dire c'est faire, Austin Op.cit., p 153-154 douzièmes conférences .
وهذه الأفعال هي: (الوعديات) Promissifs (أفعال التمرس) - exercitifs (الحكميات) verdictifs (الاثباتيات أو التبيينيات) - expositifs (السلوكيات) compositifs
- (13) ينظر، نظرية أفعال الكلام العامة، أوستين، المصدر السابق، ص: 06.
- (14) ينظر، التداولية اليوم، ص: 33.
- * أدرج سورل الفعل القضوي لتدارك الالتباس الحاصل بين الفعل الإجمالي والفعل الإنجازي، ويرمز لكل محتوى قضوي للملفوظات الإنجازية ب(p)f، وترجم إلى العربية بق(ض) ويتضح ذلك بالأمثلة الآتية:
- جون يدخن كثيرا - دَخْنُ كثيرًا جون .
- هل يدخن جون كثيرا؟ - كَمْ إِنَّ جون يدخن كثيرا!
إذ تحمل محتوى قضويا واحدا لكنها تختلف في قوتها الإنجازية.
- (15) Voir. Dictionnaire encyclopédique de pragmatique. Op.cit. p 64-65 .
- (16) ينظر، روبرول آن، موشلار جاك، التداولية اليوم، المصدر السابق، ص: 34 .

